

## ٤٥ - المصريون المحدثون

### شماثلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدورد وليم ليو

للأستاذ عدلي طاهر نور

#### تابع الفصل الثالث عشر - الوهم

قد تصد المرأة أحياناً على الظروف الخفيفة أو على معرفة أصدقاء أقرباء ، لتنجو من عقوبة الإعدام إذا ضبطت في معاينة أئيمة . وذلك كالحادث التالي : زوج الباشا إحدى جواربه من نخاس عني كان الباشا قد اشترى منه كثيراً من مماليكه وجواربه . ولم يكن الرجل يخون زوجه فحسب بل كان يهملها تماماً . فصاحت تاجراً كانت تعامله بحبة غير لائقة . وحدث ذات يوم في غيبة الزوج أن رأى أحد عبيده السود رجلاً في شباك الحرم . فذهب توا إلى غرفة الزوجة ليبحث عن الرجل . وبمخنة الزوجة قادماً فأدخلت عشيقها في غرفة

ملحقة وأغلقها عليه . ففتح البعد الباب عنوة . فهجم عليه الرجل بمنجهر كان يحمله في حزامه ، ولكن البعد قبض على النصل بيده . وقاتله الزوجة حتى هرب عشيقها ثم قبلت يده وتوسلت إليه ألا يخبر زوجها فيسبب قتلها . غير أنها وجدته صلباً لا يلين . وذهب البعد في الحال إلى سيده وأراه يده اللصامية وأخبره بالحادث . وهربت المرأة في أثناء ذلك تنشد الحماية في حريم الباشا . وطلب الزوج من الباشا أن يرد زوجته عليه ليقتلها . فاستدعاها الباشا وسألها عن جريمتها فرمت بنفسها عند قدميه وقبلت طرفي ثوبه وأخبرته بسوء أخلاق زوجها وإهاله الشديد لها . فبصق الباشا في وجه النخاس لأنه اعتبر أن سلوكه إهانة له . وأعاد الزوجة إلى حريمه . ولم يمض عشيقها طويلاً بعد ذلك فقد خنت في منزل بعض البنايا ولم تصاف البني لعدم ثبوت التهمة عليها

يؤخذ على المصريين والمسلمين عامة التسوية الشديدة في معاملة النساء . حتى أنهم لا يعتبرون استشارة الفتاة القاصر قبل زواجها ضرورياً . ولكن الغالب أن الرجل في الطبقتين الوسطى والعليا يكاد يختار زوجه على السماع دون أن يراها ، إذ لا حيلة له في رؤيتها

( آلياً ) بمخا وتجنب ما يحتاج إلى ذوق وهم وحسن فهم ، وإلا وقعت في مثل ما وقعت فيه حين زعمت أن قولك : لا يقال كريات يفضاء مستنداً إلى قول سيبويه

٤ - إنك لا تستطيع تعد كلام حتى تفهمه ، ولن تفهمه حتى تحسن قراءته ، ولن تحسن قراءته حتى تتخلف بأخلاق المتعلمين

٥ - لقد فبر زمان - لا رده الله - كانت الشهرة فيه من طريق الهموى والتعشر بمن لا يبلغ التعشر أن يكون أصغر تلاميذهم ، وأصبح يقاس فضل المرء بقوة حجته وحسن خلقه لإبلاطه وتليسه . هذا وللأب الفضال أنشأ ماري الكرملي جليل احتراماً .

سويد الوفاة

( دمشق )

حاشية : عندي من كل ما قدم تتوافد من كلام الأب للتوزر في الرسالة ، فمن هنا أتد فقه أجود من كلام بل طالب ولا فيان فأقلبه وإسناه وسوء فهمه وتبليطه الصحيح لا تلح له إلا

سليم الأذن يستسيخ ( الخطاء والصواب ) أكثر من ( الخطأ والصواب ) ، ورحم الله امرأ سيرك - وأنت تريد الكلام في القنة - إلى الجرس والموسيقى

ولست أوفى ( الرسالة ) ما يجب لها من شكرى وشكر العلم والأديب على نشرها مقالاتك كما هي : فقد رأيتك يا سيدي تدهي - بيد كلامك في الموسيقى - أن نسبك ينتهي إلى بني مراد ( تشرفنا ) ؛ ولقد تواضعت جداً إذ لم تنسب في بني هاشم وأنت تشر في محبتك شعوراً غالباً عليك بالحاجة الماسة إلى نسب ما بعد هذا التخطيط

أنتسح لي يطلب متواضع جداً ؟ إنك ستفعل منكوراً

١ - كن أميناً فيما تنقل عن الأحياء والأموات

٢ - احفظ لحياتك كتب في القنة العربية ، فإن عارفيها

كثيرون ، وليست كذلك السرانية والآشورية . فلك في هؤلاء الأخريات ميدان تصول فيه وحدهك

٣ - إن أبيت إلا لتعرض فاسلك من المجال ما كان

شراء مصاغ لاهراته أو لنسائه، إذ يسهل عليه تحويل المصاغ لأنية إلى تقود. ومن ثم أيضاً جرت العادة في هذا البلد، وفي أكثر البلدان التي يخضع لهذه الظروف السياسية، أن يخفي الرجل أمواله في منزله تحت البزط أو في أي موضع آخر. ولما كان الكثيرون من هؤلاء يمتوتون فجأة دون أن يظلموا أمرم على مكان الخبايا فإن من المؤلف أن تكتشف تقود عند هدم المنازل. وهناك رذيلة تقرب من الجشع وهي الحسد. وأعتقد أنها تكثر بين المصريين المحدثين والشعوب العربية بأجمعها على السواء. ويمتد فالكثيرون متفوعين بسلامة النية أن هذا الميل الكريه يكاد يتركز في أذهان شعوبهم تماماً.

والمصريون أمناء في الوفاء بديونهم. وقد بين الرسول صلعم أن لا شيء حتى الاستشهاد، يكفر عن دين لم يوف. وقل من المصريين من يقبل فائدة على قرض أقرضه إذ أن الشرع يشدد في مجريم ذلك.

إن دوام الصدق فضيلة نادرة للغاية في مصر الحديثة. وقد ترخص الرسول في الكذب إذا وفق بين الناس في متازمة أو أرضى زوجة أو أفاد في حرب على أعداء الدين. غير أن الكذب في أحوال أخرى محظور بشدة. ويبرر ذلك بعض التبرير عادة الكذب السائدة بين العرب المحدثين إذ أن السماح لشب بالكذب في أحوال يعود بالتدريج الكذب في غيرها. ومع أن أكثر المصريين يكذبون عمداً فقلما تسمهم يرجعون عن تحريف غير مقصودون أن يقولوا: «لا. أستغفر الله إنه كذا وكذا» كما يقولون عند ما يقررون شيئاً لا يتأكدون منه تماماً: الله أعلم

وعكسني أن أذكر هنا، وأنا أشعر بالفقر، الحادث التالي: كان في القاهرة صانع أرمي اشتهر بالصدق إلى درجة أن عملاؤه قرروا تسميته اسماً يدل على تمته بفضيلة قلباً لثقتهم، فلقبوه بالإنجليزي وصار من بعد ذلك لقباً لعائلته. والمتاد أن تسمع التجار هنا يقولون عند ما يطلبون شيئاً لا يتنون إقناسه: كلمة واحدة. (كلمة الإنجليزي). وكثيراً ما يقولون أيضاً في هذا المعنى: «كلمة الترمج». ولكنني لم أسمع أبداً بأمة كرمت هذا التكريم غير الإنجليز والمنازية. وقد اشتهر هؤلاء دون أغلب العرب الآخرين بالصدق في القول.

أشرت سابقاً إلى مادة للتعبير بالله السائدة بين المصريين. ويتبنى أن أضيف هنا أن الكثيرين منهم لا يترددون عن القسم

قبل أن يعقد العقد وتنقل إلى منزله. فيستحيل لذلك أن يكون هناك عجة متبادلة قبل الزواج. والحقيقة أن الجنسين معاً تنقل عليهما القوانين والعادات الجائرة، ولكنهما من حسن الحظ يعتبران هذه القيود ملائمة مشرفة. وقد يشتران بانمار في التخلص من هذه العادات. وقد لاحظت أن الحجاب الواقع على النساء يكون باختيارهن إلى حد كبير. وأعتقد أنه أقل صرامة في مصر منه في أي بلد آخر من بلاد الدولة العثمانية. ومن المؤكد إن هذا الحجاب أقل جدياً مما صورته لي الكثيرون. وينظر النساء إلى هذا الاحتجاب بفخر من حيث أنه يدل على عناية الزوج بهن. كما أنهن يقدرن أنفسهن بقدر حجبهن كالكنوز<sup>(١)</sup> ولا يلبقن في المجتمعات الطيبة أن يستفسر المرء بطريقة مباشرة عن حال زوجة الصديق أو امرأة ما في منزله إلا إذا كانت قريبة له. وسأل أحد مزارق المصريين آخر كان في باريس عن أغرب الأشياء التي رآها في بلاد الكفار فأجابته الآخر: إن كل ما شاهده حرمي أن يشر إعجاب الماقل البعيد عن التمسب. ولم أر شيئاً يستحق الاعتبار مثل هذه الحال: فقد جرت العادة في باريس وغيرها من مدن فرنسا أن يدعو كل من الأغنياء والمطاء أصدقاءهم ومعارفهم رجالاً ونساءً معاً إلى حفل في منزله. ويستقبل الضيوف في غرف تضاء بصد شموع وقناديل. وهناك يختلط الرجال بالنساء، وأولئك كما تعلم سافرات. ويستطيع الرجل أن يجالس زوجة رجل آخر وهو لم يرها من قبل. ويستطيع أن يسايرها ويحادثها ويراقصها أيضاً في حضور زوجها الذي لا ينضب ولا يغير مثل هذا السلوك الخزي.

يشهر المصريون أيضاً بكرمهم وجشعهم على السواء. وإن اجتماع مثل هاتين الصفتين المتناقضتين في ضمير واحد قلما يدهش. ولكن هذا هو الحال مع هذا الشعب. ويعتبر الفش والمكر في التجارة، وذلك في جميع الشعوب، إحدى قائص للمصريين الدائمة. وقلما يتردد المصري في مثل هذه الأحوال من الكذب ليكسب. ويميل الشعب الذي ين تحت نير الجور والجشع، التي امتازت به حكومات مصر طويلاً، إلى الشح دائماً. لأن المرء بالطبع يتمسك بما هو أكثر عرضة للضياع. ولذلك يمد للمصرى الضمير إذا ملك مبلناً من المال لا يلزمه حالاً إلى (١) وتماطبت النبعة المحترمة في رسالة كما يأتي: النبعة المصونة وبالجمرة للكتابة.

وعيل المصريون خاصة إلى الهجاء . وكثيراً ما يظهرون ذكاء في تهكمهم ومرحهم . وتساعدهم اللغة العربية على استعمال التورية والحديث المبهم الذي يتهكمون فيه بكثرة . وتهجو الطبقات السفلى أحياناً حكماً في الأغاني ويشخرون من هذه القوانين التي يقاسونها كثيراً . وقد تسليت مرة بأغنية شائعة في أسوان وإقليمها . وكانت هذه الأغنية دهاء صادقاً بأن يبيد الطاعون حاكمهم المستبد وكتابه القبطي . وكانت في مصر كلها أغنية دائمة أثناء زيارتي الأولى ألفت لزيادة ضريبة (الفردة) وكانت تبدأ هكذا : « يا لي عندك لبد ، بما وادفع الفردة » واللبدة كما ذكرت قبلاً غطاء رأس من اللبد يلبس تحت العمامة أو بدلها . ويعتبر من ليس له غطاء رأس غير اللبدة فقيراً جداً .

هدية طاهر نور

« بنبع »

الصديق

أبو بكر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

منه ٣٠ قرشاً

خلاف البريد

يطلب من مكتبة النهضة - ٩٠ - ٩٠ شارع مصر

ليدروا عن أنفسهم تهمة الكذب . وقد يقولون في هذه الحالة أحياناً : والله ( بكسر الميم ) أو عادة : والله . كأنهم يزعمون أن الصينة الأخوة يجوز استعمالها في الدماء . أما « والله ( بالكسر ) فهو قسم صريح والنطق به كذباً ، إيم كبير . ويكفر عن هذه اليمين بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام . على أن هذه الكفارة رخص القرآن بها لقسم طائش فقط . ولكن المصريين المحدثين يراعونها أحياناً ليحجروا أنفسهم من وزر قسم كاذب مقصود . ويفضلون الصوم على الكفارات الأخرى . وهناك إيمان أعقد أن بعض المسلمين لا يرددون في القسم بها كذباً مثل قولهم ثلاثاً : « والله العظيم » أو القسم على المصحف بقولهم : « بما يحتوي هذا من كلام الله » ، ولكن القسم الذي لا يزال يعتمدون عليه هو قولهم : « على الطلاق » أو « على الحرام » أو « على الطلاق بالثلاثة » . فإذا كذب الرجل في أحد هذه الأقسام الثلاثة تصبح امرأته طالقاً إذا ثبت حثه . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة وجب حينئذ أن يختار لإحداهن فيخصص بها الطلاق . غير أن هناك كاذبين فاسدين يقسمون زوراً بأشد الأيمان إلزاماً . وقد قال الشاعر يصف هذا الخلق . وأكذب ما يكون أبو المثلئ إذا آلى يميناً بالطلاق ويسهل محريض المصريين إلى المشاجرة وخاصة السفلة الذين يتشائمون في نورتهم بسب الآباء والأمهات واللحى الخ . ويسرفون في نعت كل من الآخر بأحط النعوت كأن يقول : يا ابن الكلب ، أو يا قواد ، أو يا خنزير ، وهناك تسمية أخرى برونها أشد الشتائم على اللوام وهي قولهم : يا يهودي . وعند ما يسب أحد المتخاصمين الآخر يجاوبه هذا بلعن أبيه وأمه وأحياناً بلعن العائلة جميعها . ويهدد كل منهما الآخر ولكن قلما يبادران إلى الضرب . غير أنني رأيت في أحوال قليلة بعض السفلة تأثرين إلى درجة أن كلاما من المشاجرين كان يعض الآخر ويقبض عليه من حلقه . وشاهدت أيضاً عدة مرات أفراداً من الطبقتين الوسطى والسفلى يتحملون السب الغليظ . وكثيراً ما سمعت المصري يقول عند ما يضره ربه يد له : « الله يبارك فيك . الله يجازيك خيراً . إضربني مرة أخرى » . وتنتهي المشاجرة عادة بأن يقول أحد الطرفين أو كليهما : « الحق على » وكثيراً ما يقرآن الفاتحة بعد ذلك ثم يتناقان ويقبل كل منهما الآخر أحياناً

حكمت محكمة دمنهور السكرية بجملة ٢٣ - ٩ - ١٩٤٢ في القضية رقم ١٨٨٣ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد أحمد مهدي محمد س ٤٠ نلاج مزبة عملة دسونس بتاريخ ٥٠ جنيه والصادرة والخلق والصدق على عملة ومركز البوليس والنشر على مصاريفه لأنه باع سكرًا بمرأه من المهذب بالنسبة